مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 13 العدد: 01 السنة 2021 ص 61 - 80

تاريخ الإرسال: 2020/01/14 تاريخ القبول: 2020/11/01
تاريخ النشر :2021/01/30

منهج البحث في التاريخ عند البيروني
El Bayrouni's History Research Methodology

د. محمد بوداني.
جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله (الجزائر)، mohamed_boudani@yahoo.fr

الملخص:

يهدف هذا العمل إلى تسليط الضوء على مجهودات مفكري الإسلام في وضع منهج علمي للتاريخ قبل مفكري أوربا بقرون. وهذا من خلال الوقوف على ما استحدثه في هذا الحقل أبو الريحان البيروني (363-440هـ)(973-1048م). البحر الهائج المائج كما يصفه علي صفا في مقدمة كتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة. بحيث حاول هذا المفكر نقل التاريخ من مجرد أخبار ماضية إلى وقائع قابلة للدراسة العلمية شأنها شأن الظواهر الطبيعية.

وفي هذا الإطار خلصنا إلى أن هذا الباحث تمكن من وضع منهج علمي قائم على أسس علمية تتمثل في السماع والعيان ثم القياس (قياس الغائب على الشاهد)، فكان منهجه هذا استقرائيا من خلال المعاينة أو المشاهدة أو ما يعرف بالتجربة المعيشية، واستنباطيا من خلال القياس والنقد، وهي مقاربة تشبه إلى حد كبير محاولة إميل دوركايم (1858-1917م) الذي دعا إلى دراسة الظاهرة الاجتماعية وكأنها شيء.

الكلمات المفتاحية: المنهج، البحث العلمي، البيروني، التاريخ.

Abstract:

This work aims to manifast the islamic thinkers efforts in setting a scientific method for studying the history. Lot of centuries, before European thinkers. This is according to some famous islamic thinkers involving Abou-Rayhane El Bayrouni (363-440h)(973-1048c) , who tried to find a special method in studying scientifically the history.

This method is based on scientific foundations of hearing, visualization (living experience), and (Qiyas of the missing on the existing). This approach is very much like to try Emil Durkheim(1858-1917c), who called for the study of social phenomenon as something.

Key words : method , research scientific ,El Bayrouni , the history.

المؤلف المرسل: **محمد بوداني** ، MOHAMED_BOUDANI@YAHOO.FR

1. مقدمة:

يعد منهج البحث في أي علم من العلوم ظاهرة حضارية، على أساسه نحكم على مكانة حضارة ما. إذ يقاس الدور العلمي لأي حضارة أو أية مرحلة فكرية بحسب ما أنجزه علماؤها في هذا المجال. وهو ما لم يغفله مفكرو الحضارة الإسلامية بحيث عملوا على إرساء مناهج علمية لمختلف مجالات البحث التي تألقوا فيها، بحيث تمكنوا من تقديم انجازات لا يستهان بها في مجال البحث العلمي بإتباعهم الطريقة العلمية القائمة على أسس صحيحة، فمارسوا المنهج الاستقرائي إضافة إلى مناهج علمية أخرى تمكنوا على إثرها من إثراء البحث العلمي وإعطائه الصورة المتكاملة.

وبحثنا هذا يتناول منهج البحث في الكتابة التاريخية عند أحد مفكري الحضارة الإسلامية، نقصد به أبو الريحان البيروني(363-440هـ) (973-1048م) الذي يحدد مفهوم التاريخ في أحد كتبه على أنه: " مدة معلومة تعد من لدن أوّل سنة ماضية كان فيها مبعث نبي بآيات، وبرهان أو قيام ملك مسلط عظيم الشأن، أو هلاك أمة بطوفان عام مخرب أو زلزلة، وخسف مبيد أو وباء مهلك، أو قحط مستأصل أو انتقال دولة أو تبدل ملة، أو حادثة عظيمة من الآيات السماوية، والعلامات المشهورة الأرضية التي لا تحدث إلاّ في دهور متطاولة، وأزمنة متراخية تعرف بها الأوقات المحددة فلا غنى عنها في جميع الأحوال الدنيوية والدينية"[1] يوحي هذا النص أن موضوع التاريخ عند البيروني هو مدة زمنية معلومة وقعت فيها للإنسان حوادث: أي أن علم التاريخ يعالج وقائعا حدثت للإنسان بالفعل فإذا كان هذا موضوع التاريخ عند مفكرنا البيروني فما هو النهج الصحيح الذي ينبغي العمل على شاكلته للكتابة التاريخية؟ أو ما هو سبيل بلوغ الحقيقة التاريخية؟

بغية علاج هذه المشكلة ارتأينا أن نعرج على أهمية المنهج وضرورته عند البيروني. ثم الحديث عن أسس الكتابة التاريخية عنده. وقد عولنا على المنهج التحليلي النقدي المناسب لمثل هذه الموضوعات.

2. ضرورة المنهج عند البيروني:

إن استقراء مؤلفات البيروني، يكشف دون عناء أنه كان شديد العناية بالمنهج. وهذا معناه أنه كان يرى أن تحديد المنهج في أي دراسة ضروري. وهو ما نقف عليه في الكثير من الأحيان في مقدمات هذه المؤلفات، وإن كنا لا ننكر أنه لم يستخدم لفظ منهج ولكنه كان يستخدم تعبيرات توحي بما يعني هذا المصطلح. بحيث وجدناه تارة يعبر عن هذا المصطلح بلفظ السبيل كما في قوله:" فإن الذي ذكرته أولى سبيل يسلك بأن يؤدي إلى حاق المقصود، وأقوى معين على إزالة ما يشوبه من

شوائب الشبه، والشكوك وبغير ذلك لا يتأتى لنا نيل المطلوب"[2]. جاء هذا القول ردا على سؤال وجّه إليه من قبل أحد الأدباء عن التواريخ التي تستعملها الأمم والاختلاف الواقع في الأشهر والسنوات والأعياد واقترح عليه الإبانة عن ذلك[3].

وتارة أخرى بلفظ الطريق كما هو الحال عندما يقول:" ... أعرضنا عن ذكرها إلى وقت يتفق لنا الإحاطة فيه بها إذ لا يليق بطريقتنا التي سلكناها أن (نضيف الشك إلى اليقين والمجهول إلى المعلوم)"[4]. كان قوله هذا لما لم يكن يعلم طريقة الهند والصين والترك في كبس سنينهم الشمسية بحيث اعتذر حتى يحيط بها علما. وفي السياق نفسه يقول في مقدمة كتابه الأثار الباقية من القرون الخالية: " ...على أن الأصل الذي أصلته والطريق الذي مهدته ليس بقريب المآخذ"[5].

أما في مقدمة كتابه القانون المسعودي، فقد استعمل لفظ المسلك حيث يقول:" ولم أسلك فيه مسلك من تقدمني من أفاضل المجتهدين"[6]. يفهم من هذا أن البيروني يملك رؤية جديدة تخالف ما اعتاد عليه المؤرخون من قبله، والمقصود بذلك منهج الرواية الذي اعتمده أسلافه كاليعقوبي (ت279هـ)، والطبري(ت310هـ)، وهي المنهجية المرتبطة بالطريقة التي استخدمها علماء الحديث، والتي تتأسس على ما يعرف في أوساط علماء الحديث بالجرح والتعديل وذلك بدراسة الرجال أو نقد السند أو العنعنة. وبهذا تجاوز التاريخ مع البيروني طريق النقل وانتقل إلى التجربة المعاشة والنقد والتمحيص وإعمال العقل كما يتبين فيما سيأتي.

3.أسس الكتابة التاريخية عند البيروني:

لما طلب من البيروني الإبانة عن التواريخ التي تستعملها الأمم والإختلاف الواقع في الأشهر والسنوات والأعياد كما أسلفنا رد قائلا: "...فعلمت أن ذلك أمر صعب المتناول، بعيد المآخذ، غير منقاد لمن رام إجراءه مجرى الضروريات التي لا يتخالج قلب الواقف عليها شبهة فيها؛ لكني تأيدت بعلو دولة مولانا الأمير، السيد

الأجل، المنصور، ولي النعم، شمس المعالي، أدام الله قدرته في استفراغ الوسع، واستنفاد الجهد في الإبانة عن ذلك على حسب ما بلغه علمي، إن بسماع وإن بعيان، وقياس"[7].

نخرج من هذا النص بملاحظتين: أولاهما اعتراف البيروني بصعوبة المهمة الملقاة على عاتقه، لأن الموضوع الذي هو بصدد البحث فيه لا يتعلق بالضروريات التي يمكن تحصيلها بالاستدلال العقلي ولا بالمحسوسات التي يتم تحصيلها بالمشاهدات وهو ما عبر عنه بقوله: " وابتدئ فأقول: إن أقرب الأسباب المؤدية إلى ما سئلت عنه هو معرفة أخبار الأمم السالفة، وأنباء القرون الماضية، لأن أكثرها أحوال عنهم، ورسوم باقية من رسومهم، ونواميسهم و لا سبيل إلى التوصل إلى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات، والقياس بما يشاهد من المحسوسات"[8]. مما يعني أن موضوع التاريخ يختلف عن موضوع الرياضيات وهو مجال برع فيه البيروني أو العلوم الطبيعية التي أبدع فيه هي الأخرى، وبالتالي فالسبيل لدراستها يختلف عن سبل دراسة الرياضيات والعلوم الطبيعية. أما الملاحظة الثانية التي يمكن الخروج بها من النص المذكور سابقا هي أن معرفة أخبار الأمم تتم بال**سماع** أو **العيان** ثم **القياس**. وهو ما يعني أن الكتابة التاريخية تقتضي الأسس الآتي ذكرها.

3. 1 السماع:

نشير في هذا المقام أن منهج السماع كان متغلغلا وضاربا بجذوره في أوساط المفكرين المسلمين سيّما المحدثين منهم الذين ساروا وفق هذا النهج وتمكنوا من جمع الأحاديث النبوية، بعدما وضعوا الشروط الواجب توفرها في الراوي كالنزاهة والعدل؛ ولكن البيروني لا يثق في كل ما يسمعه من أخبار حتى ولو كانت مكتوبة، وإذا قبلها أخضعها للفحص العقلي والمنطقي، وهنا تبرز أهمية الاستدلال عنده ولهذا

وجدناه يرفض الكثير من الأخبار واعتبرها خرافية، منها على سبيل المثال لا الحصر:

– ظهور صليب من نار وسط السماء في زمن الإمبرطور قسطنطين الكبير (337–374م)، بحيث نجده يعلق على هذا الخبر قائلاً: " ومن غير المحصلين منهم من أشار إلى الصليب الذي في صورة الدلفين الذي يسميه العرب القعود، وهم أربعة كواكب عند النسر الواقع وقوعها شبيه بزاوايا المعين.

... والعجب منهم حيث لا يتدبرون حتى يعرفوا أن في العالم أمما من شأنهم رصد الكواكب وامتحان أسبابها منذ أحقاب ودهور يتوارثون فيما بينهم خلف عن سلف أن كواكب الدلفين من الثوابت التي وجدها أسلافهم المعتنون بأمرها على هذه الهيأة، بل كثيرا ما يستعمل هذه الفرقة من النصارى في تعظيم أمر الصليب بصنوف من التمويهات والهوس"[9].

– قصة الأرحية التي تتوقف عن الطحين يوم السبت: وهي قصة يوردها لنا البيروني بقوله :" حكى الجيهاني في كتاب المسالك والممالك، أن في شرقي مدينة طبرية[10]، مدينة بلياس التي منها ينبع نهر الأردن وعليه أرحية تتوقف يوم السبت ولا تطحن لنضوب مائها حتى ينقضي يوم السبت، وكان أصحاب هذه الأرحية في القديم من اليهود ثم صارت للمسلمين ولكنهم تبعوا تلك الرسوم السابقة" [11]. ثم يعلق البيروني على هذه القصة فيقول: " لا أجد لهذا في الطبيعيات مأخذا، لأن مداره على أسابيع الأيام، فأما ما كان على السنين من الشمس وشعاعه، وما كان على الشهور فمن القمر وضيائه"[12].

– خبر الأسطوانتين اللتين في جامع القيروان: وهو خبر أورده أيضا الجيهاني في كتابه المذكور سابقا، مفاد هذا الخبر أن هاتين الأسطوانتين ترشحان ماء كل يوم جمعة قبل طلوع الشمس. يرد عليه البيروني بقوله: " وموضع العجب من كونه يوم

الجمعة، فلو كان يوم من أيام الأسبوع مطلقا، يحمل على بلوغ القمر موضعا من الشمس أو ما يشبه ذلك ولكن يوم الجمعة مشترطة لا يحتمل ذلك"[13].

هذه التعليقات وغيرها مما لم نذكره، تدل على أن البيروني لا يثق ثقة عمياء في أخبار المتقدمين، التي قد يداخلها العبث والفساد. ولهذا يدعو إلى إعمال العقل وتحكيمه، لأن طبائع الأشياء تجري على سنن معلومة.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد أن هذا الأمر يشبه كثيرا ما نادى به عبد الرحمان بن خلدون (1332–1406م) فيما بعد لما رأى أنه من أسباب الوقوع في الكذب في التاريخ "الجهل بطبائع الأحوال في العمران"[14]. وذلك أنه كما يقول: " كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لابد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله"[15]. أي أن هناك قوانين كونية، يؤدي الجهل بها إلى قبول الأخبار المستحيلة ونقلها دون تمحيص، الأمر الذي وقع في المسعودي صاحب كتاب مروج الذهب. حين نقل خبرا عن الإسكندر لما كان بصدد بناء مدينة الإسكندرية –مدينة مصرية–كانت تصده دواب البحر أي وحوش فاتخذ تابوتا من الخشب في باطنه صندوق الزجاج وغاص فيه إلى قاع البحر، وكتب صور تلك الدواب الشيطانية التي رآها، وعمل تماثيلها من أجساد معدنية، ونصبها حذاء البنيان، ففرت تلك الدواب لما خرجت ورأت تلك التماثيل، وبهذه الكيفية تمكن من بناء هذه المدينة[16].

وهنا يسلك ابن خلدون المسلك الذي سلكه البيروني فيعلق على هذا الخبر ويعتبره خرافة مستحيلة لعدة أسباب من أهمها أنّ: " المنغمس في الماء ولو كان في صندوق يضيق عليه الهواء للتنفس الطبيعي وتسخن روحه بسرعة لقلّته، فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل لمزاج الرئة والروح القلبيّ، ويهلك مكانه"[17]. نشير هنا

أن ابن خلدون دحض عدة اخبار لعدة مؤرخين لهذا السبب وهو ما سبقه إليه البيروني بثلاثة قرون.

كما يحذر البيروني من الركون إلى تلك الأخبار المتواترة عن الأمم السالفة لأن قبول مثل هذه الآراء المتناقلة عبر الأجيال قد تكون أداة ضغط على المؤرخ المنصف[18]، مما يؤدي إلى بعد المؤرخ عن الموضوعية لأن ما يتناقله السلف من أخبار لا يعكس دائما الحقيقة، وعن هذا يقول بلسانه:" علينا أن نأخذ الأقرب من ذلك فالأقرب، والأشهر فالأشهر، ونحصلها من أربابها، ونصلح منها ما يمكن إصلاحه، ونترك سائرها على وجهها، ليكون ما نعمله من ذلك معينا لطالب الحق، ومحب الحكمة على التصرف في غيرها ومرشدا إلى نيل ما لم يتهيأ لنا"[19].

في هذا النص دلالة على حرص البيروني على بلوغ الحقيقة، وذلك بإصلاح ما يمكن إصلاحه من جهة، والتواضع من جهة أخرى عندما يعترف بأن هناك أمور لا تتهيأ له وقد تتهيأ لغيره من الباحثين وطلاب الحقيقة؛ اللافت للانتباه في هذا المقام أن البيروني يعطي للسلف حقه عندما يرى أن الأخبار ليست كلها داخلة في حد الامتناع فتميز وتهذب. ولكن ما كان منها في حد الإمكان جرى مجرى الخبر الحق، إذ لم تشهد ببطلانه شواهد أخرى[20] ، ما يعني أن البيروني لا يدعو إلى عدم الركون إلى الآراء المتواترة عن الأمم السالفة جملة وتفصيلا وإنما يدعو إلى إعمال العقل من أجل تمحيصها والتأكد من مدى معقوليتها.

3. 2 العيان:

إن البحث الموضوعي بحسب البيروني يجب أن يقوم بالدرجة الأولى على العيان، أو الملاحظة المباشرة التي تقتضي الحضور الجسدي للباحث حتى يرى بعينيه ويسمع بأذنيه ما يحدث، وهذا معناه أن يكون الباحث حاضرا. وحاضر كصفة حسب أندري لالاند: تدل على علاقة الفكر بموضوعه[21]، والمقصود بالحضور هنا

المثول (Présetation)، الذي يعني: " في النفسنيات الإخبارية مرحلة من تجربة تقوم على جعل الذات تدرك موضوعا معينا. ويمكن للمثول أن يكون بصريا (فيسمى عندئذ عرضا éxposition أيضا)، أو سمعيا، أو لمسيا ..، إن «من المثول » هو الزمن الذي يظل الشيء خلاله تحت حاسة(أو تحت حواس) الذات "[22]، مما يوحي أن الدراسة الموضوعية عند البيروني تقتضي المباشرة، أين تكون الذات في علاقة مباشرة مع موضوعها.

ولهذا يفتتح البيروني مقدمة كتابه تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة بقوله: " صدق قول القائل ليس الخبر كالعيان"[23]، والعيان بوجه عام، هو الرؤية المباشرة للحقيقة أو الواقع أو هو الإدراك المباشر لحقيقة أو واقعة ما[24]، أما عند البيروني فهو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله"[25].

وفي هذا الإطار نذكر أن البيروني مكث في الهند أربعين سنة تمكن من خلالها الإحاطة بعلوم الهنود ومخالطة علماءهم، وقراءة كتبهم. ولما اطمأن إلى ما حصّله من ضروب المعرفة عندهم، وأحاط بمناهجهم في البحث، وعرف رسومهم وتقاليدهم وضع لنا كتابا كبيرا سماه تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة عرض فيه مدنية الهند وحضارتها[26]. فطبق بهذا أساس المعاينة.

التساؤل المطروح هنا، إذا كانت الأحداث التاريخية متعلقة بزمن مضى، هل يمكن للعيان أو الملاحظة من الإطلاع عليها؟ . الحقيقة أن البيروني لا ينفي دور الخبر في دراسة هذا الموضوع وهاهو يعترف بلسانه قائلا: " والكتابة نوع من أنواعه[الخبر] يكاد أن يكون أشرف من غيره، فمن أين لنا العلم بأخبار الأمم لولا خوالد آثار القلم"[27]. إلاّ أنه يجعله أدنى قيمة إذ يصبح عنده مصدرا ثانيا حين يتعذر العيان. ومن هنا راح يشدد على ضرورة نقل الخبر الصحيح وتوخي منهج

الكتابة الموضوعية عن العقائد المخالفة للإسلام، لأنه شرط لمن يروم تحصيل معرفة صادقة بالآخر. وعلى هذا الأساس ينبغي الحذر من نقل الخبر كما هو ذلك أن " الخبر عن الشيء الممكن الوجود في العادة الجارية يقابل الصدق والكذب على صورة واحدة وكلاهما لاحقان به من جهة المخبرين لتفاوت الهمم، وغلبة الهراش[28] والنزاع على الأمم. فمن مخبر عن أمر كذب يقصد فيه نفسه فيعظم به جنسه...، ومعلوم أن كلا هذين من دواعي الشهوة والغضب المذمومين. ومن مخبر عن كذب في طبقة يحبهم لشكر أو يبغضهم لنكر،... ومن مخبر عنه متقربا إلى خير بدناءة الطبع...ومن مخبر عنه جهلا، وهو المقلد للمخبرين"[29].

ينبهنا البيروني من خلال هذا النص، إلى شيء ضروري يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار، في أي دراسة علمية تجعل من الخبر مصدرا لها، ويتعلق الأمر بارتباط الخبر بحالة المخبر ومشاغله، فقد يكون متعاطفا مع الملة موضوع البحث أو متحاملا عليها، وهذا يؤثر في طبيعة الأخبار التي ينقلها إلى غيره، وبالتالي صدقها، يشبه هذا ما اصطلح عليه ابن خلدون فيما بعد التشيعات للآراء والمذاهب الذي جعله من أسباب الزلل في الكتابة التاريخية. ذلك أنه كما يقول: " إذا خامرها [النفس] تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من أخبار لأوّل وهلة، وكان ذلك الميل والتشيّع غطاءً على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص، فتقع في قبول الكذب ونقله"[30]. وهذا ما يجعلنا نفتح فرضية اطلاع ابن خلدون على أبحاث البيروني بالنظر إلى الأسبقية الزمنية للثاني على الأول.

وتجدر الإشارة في هذا المقام أن البيروني تفطن إلى ضرورة التحرر من أسر العاطفة الدينية من أجل دراسة الأديان دراسة موضوعية بدون التحامل او الميل لدين دون آخر أو بيان عيوب منظومة عقائدية دون غيرها، وعلى هذا الأساس انتقد سابقيه الذين اهتموا بالحضارة الهندية وتقاليدها الدينية، ورأى أن" أكثرها [ما خلّفوه]

هو مسطور في الكتب هو منحول وبعضها منقول وملقوط مخلوط غير مهذب على رأيهم ولا مشذّب"[31]. أي غير صحيح وغير سالم من الزيادة والتحريف. يفهم من هذا النص أن علماء الإسلام قبله[32]، لم يفهموا تقاليد الهند الروحية وتناولوها على أساس ما هو منقول من الأخبار، فجاء كلامهم في هذا الإطار غير دقيق وعاما ينقصه التخصيص، ولذلك أقر بأنه لم يجد أحدا من أصحاب المقالات[33] قصد الحكاية المجردة من غير ميل ومداهنة سوى أبي العباس الإيرانشهري[34].

وفي هذا الإطار يمكن أن نذكر أهم الصعوبات التي اشتكى منها البيروني وهو بصدد تأريخه للديانة الهندية وهي في مجملها تنشطر إلى شطرين:

أ- صعوبات تتعلق بالمخبر: يعددها لنا البيروني في كتابه تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، تتمثل في :

أولاً: إن المخبر قد يخبر عن أمر كذب لتعظيم نفسه أو جنسه، ويزدري به غيره وذلك لكونه متعاطفا مع الديانة أو متحاملا عليها ومعلوم أن هذا من دواعي الشهوة والغضب المذمومين[35].

ثانياً: إن المخبر قد يكذب في شأن طبقة يحبهم لشكر أو يبغضهم لنكر والدافع لهذا من دواعي المحبة أو الغلبة[36].

وثالثاً: قد يكون المخبر كذابا بطبعه كأنه محمول عليه غير متمكن من غيره وذلك من دواعي شر السريرة[37].

ورابعاً: قد يكون المخبر جاهلا، وهو مقلد ناقل عن مخبرين كاذبين وإن كثروا وتواترا فرقة بعد فرقة، فهم وسائطهم فيما بين السامع وبين الجاهل المتعمد[38].

وخامساً: قد يكون المخبر متقربا إلى من يخبر عنهم[39]، وهو ما اصطلح عليه ابن خلدون التقرب إلى أصحاب التجلة[40].

ب- صعوبات تتعلق بالمخبر عنهم: وهي ثلاث صعوبات تتمثل في ما يلي:

أولاً: عائق اللغة، بحيث أن جهل المؤرخ للسان الأصلي للديانة التي يؤرخ لها يشكل حجر عثر أمام بلوغ الحقيقة التاريخية، فاللغة السنسيكريتية وهي إحدى لغات الهند مثلا تشبه اللغة العربية من تسمية الشيء الواحد بعدة تسميات لا يفرق بينها إلا ذو فطنة لموضع الكلام وقياس المعنى في الجملة بالرجوع إلى الوراء أو الأمام. كما أن لغة الهند منقسمة إلى مبتذل عامي لا ينتفع به إلا السوقة، وعلى مصون فصيح يتعلق بالتصاريف والاشتقاق، ودقائق النحو والبلاغة لا يرجع إليه إلا الفضلاء المهرة، ومن مميزات هذه اللغة أنها مركبة من حروف لا يطابق بعضها حروف العربية أو الفارسية ولا تشابهها بل تكاد ألسنتنا ولهواتنا، تنقاد لإخراجها على حقيقة مخارجها، ومن صعوبات هذه اللغة أنه يجتمع فيها حرفان ساكنان أو ثلاثة كما في سائر لغات العجم مما يصعب علينا التفوه بأكثر كلماتها والأسماء الواردة فيها لافتتاحها بالسواكن[41] .

ثانياً: الاختلاف في الديانة الذي يؤدي إلى عدم قبول من ليسوا من الديانة نفسها، فتتشكل قطيعة بين المؤرخ الذي لا ينتمي إلى الديانة التي يؤرخ لها وبين أهل هذه الديانة فيتعذر عليه الوصول إلى الأخبار على حقيقتها، يقول في هذا الشأن:" ثم لا مطمع لهم قبول من ليس منهم إذا رغب فيهم أو صبأ إلى دينهم وهذا ما يفسخ كل وصلة، ويوجب أشد القطيعة بينهم وبين الأمم الأخرى"[42]. ولهذا انتقد البيروني أسلافه ممن اطلع على كتبهم، لثقتهم في المصادر الإسلامية وشكهم في مصادر الملل المدروسة باعتبارها مصادر محرفة ومزيفة.

ثالثاً: الاختلاف في كتب العلوم الذي يقول عنه:" كتبهم في العلوم مع ذلك منظومة بأنواع من الوزن، قد قصدوا بذلك انحفاظها على حالها وتقديرها، وسرعة ظهور الفساد فيها عند وقوع الزيادة والنقصان ليسع حفظها،... ومعلوم أن النظم لا يخلو من شوب التكليف لتسوية الوزن، وتصحيح الانكسار، وجبر النقصان، ويحوج إلى

تكثير العبارات، وهو أحد أسباب تقلقل الأسامي في مسمياتهم، وتعسر الوقوف على ما عندهم"[43]. وهذا معناه أن البيروني أدرك أهمية ما هو مكتوب في الكتب كي يتخذ كمصدر تستقى منه الحقائق التاريخية، فهو دائما يفضل الكتابة على الحكاية أو السماع وذلك لأنه كما يقول:" إن اللسان مترجم للسامع عما يريده القائل فلذلك قصر على راهن الزمان الشبيه بالآن، وأنّى كان يتيسر نقل الخبر من ماضي الزمان إلى مستأنفه على الألسنة وخاصة عند تطاول الأزمنة، لولا ما أنتجه قوة النطق في الإنسان من إبداع الخط الذي يسري في الأمكنة سريان الرياح ومن الأزمنة إلى الأزمنة سريان الأرواح فسبحان متقن الخلق ومصلح أمور الخلق"[44] .

وبناء على تحذير البيروني من هذه المعيقات وحرصه على التيقن من الأخبار بغربلتها، راح الدكتور أشرف صالح محمد سيد يصف أسلوب البيروني في الكتابة التاريخية قائلاً:" فنجده صاحب رؤية خاصة في كتابة التاريخ يظهرها أسلوبه المنظم في عرض الأحداث المتعاقبة ليس بقصد تسجيل هذه الأحداث أو قص الأخبار الباقية وإنما إعمال النقد فيها والكشف عن أسبابها بما تمتع به من جرأة في الرأي"[45].

وعلى هذا الأساس القائم على النقد العلمي البعيد عن الذاتية، تمكن البيروني من وضع جداول تاريخية تغطي مرحلتي ما قبل الميلاد وبعده للملوك الذين حكموا أشور وبابل، وملوك الكلدان، والأقباط، واليونان[46].

أما عن بداية السنة الهجرية فيذكر أن عمر بن الخطاب احتاج إلى تاريخ فاستشار أهل الرأي فوقع الاختيار على هجرة الرسول كبداية للتأريخ الجديد لكونها " أظهر الأوقات وأبعدها من الشبه والآفات"[47].

3. 3 القياس:

المقصود بالقياس في هذا المقام، جمع الآراء والأقوال السابقة ثم مقارنتها بالحاضر، وهو ما يعرف بقياس الغائب بالشاهد، مما يسمح بمعرفة الماضي من خلال الحاضر كما أسلفنا، وهكذا يصبح الحاضر بمثابة النافذة التي نطل من خلالها على الماضي ذلك أن الحوادث" يرتبط بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول، أي أنه لو تشابهت الظروف لتشابهت تبعا لذلك الوقائع، وإذا سلمنا بأن طبائع الناس ثابتة أو تكاد تكون ثابتة، كانت معرفة الحاضر معرفة صحيحة هي وسيلتنا الآمنة لمعرفة الماضي والمستقبل. ومادام الواقع الحاضر هو مدار حكمنا، وجب علينا رفض ما قد يروى لنا من أخبار عن الماضي مما نراه من مستحيل الوقوع في الحاضر"[48].

وهذا معناه أن الحاضر أو الشاهد هو الأداة التي نختبر من خلالها مدى صدق الخبر من عدمه، هذا الخبر المتعلق بالماضي تشوبه الكثير من الأساطير والأكاذيب يجب الكشف عنها. إذن فليس الخبر كالعيان كما يردد البيروني[49].

إن الخبر هو الماضي الذي يصل إلينا مكتوبا يقول البيروني: " فمن أين لنا العلم بأخبار الأمم لولا خوالد آثار القلم ؟ "[50]. فمعرفة أخبار الماضي بحسب البيروني تتم عن طريق ما كتب، وهنا تصبح خوالد آثار القلم حاضرا هي الأخرى، لكون الكتابة تعبر عن الماضي في الحاضر. هذا ولا ينكر البيروني أن الماضي قد يصلنا مسموعا أي مشافهة ولكنه فضّل الكتابة على اللسان يقول في هذا الشأن: "إن اللسان مترجم للسامع عما يريده القائل فلذلك قصر على راهن الزمان الشبيه بالآن، وأنّى كان يتيسر نقل الخبر من ماضي الزمان إلى مستأنفه على الألسنة وخاصة عند تطاول الأزمنة، لولا ما أنتجه قوة النطق في الإنسان من إبداع الخط الذي يسري في الأمكنة سريان الرياح من الأزمنة إلى الأزمنة سريان الأرواح فسبحان متقن الخلق ومصلح أمور الخلق"[51]، وهذا معناه أن الخبر المدّون أسمى من الخبر المسموع. لكون الخبر إذا اقتصر على المشافهة زال بزوال صاحبه. أما العيان فهو"

إدراك عين الناظر عين المنظور إليه، في زمان وجوده ومكان حصوله"[52]، أي المشاهد المدرك إدراكا حسيا مما يعني أنه يمثل الحاضر.

اللافت للانتباه هنا إدراك البيروني مدى أهمية الحاضر سواء أكان عيانا أو خبرا مدونا في فهم الحوادث التاريخية فهما موضوعيا ودقيقا. وبهذا يصبح الحاضر أداة للتمحيص. لكن قد يقول قائل أن الماضي قد تستحضره الذات عن طريق الذاكرة التي يلعب فيها الخيال دورا كبيرا، هذا الخيال الذي يضفي على الحادثة ما ليس موجودا فيها أي يصبغها بصبغة ذاتية، الأمر بالنسبة للبيروني لا يكون على هذه الشاكلة، بل الذات في تعاملها مع الماضي انطلاقا من الحاضر أو الشاهد فهي تتصل مباشرة بهذا الماضي فتصبح شاهدة عليه أي المعاين له مثلما هو الأمر في العلوم الطبيعية. وبواسطة هذه المعاينة المباشرة أو حضور الذات القائم على التأمل والتركيز في الحادثة كتركيز الملاحظ على الظاهرة الطبيعية تتمكن الذات من التغلغل في الحادثة الأمر الذي يسمح لها بغربلة ما هو مقبول مما هو مرذول.

هذه المقاربة التي تجعل من الحاضر كشاهد نقيس عليه الماضي كغائب، تجعلنا نفتح مرة أخرى فرضية امتدادها إلى ابن خلدون الذي انطلق هو الآخر من الحاضر في تأسيس منهجه في كتابة التاريخ عندما نادى بتحكيم طبائع العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني حين قال: " فهو [التاريخ] محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبيت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد"[53]. ما يعني أن ابن خلدون يدعو إلى نقد الأخبار وغربلتها وتمحيصها وعدم قبول الأخبار كما هي دون نقد أو تمحيص، وبالتالي الحذر كل الحذر من أخذ الأخبار كما هي بغثها وسمينها دون إخضاعها إلى القوانين الكونية.

نلاحظ هنا تفطن ابن خلدون إلى تأثير طبيعة العمران البشري في تمحيص الأخبار التاريخية، بل وجعله من الأسس التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار في الكتابة التاريخية في منهجه التاريخي الذي يبنى على قياس الغائب(الماضي) بالشاهد (الحاضر). بحيث أن صاحب هذا الفن أي التاريخ يحتاج كما يقول إلى:" العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السيّر والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال، والإحاطة بالحاضر"[54].

نفهم من هذا القول أن معرفة ما هو ماضي لن يتم إلا بالإحاطة بالحاضر، ثم" مماثلة ما بينه [الحاضر] وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتفق منهما والمختلف"[55]، مما يدل أن فهم الماضي فهما صحيحا يتوقف عل قوانين العمران أي الحاضر أو الشاهد، ومقارنة هذا الحاضر أو الشاهد بالماضي وتفسير كل اتفاق أو اختلاف.

وهو ما تفطن إليه البيروني من قبل إذ رأى أن فهم الوقائع التاريخية لن يكون إلا بالربط بين ما هو ماض وما هو حاضر، بين ما كان وما هو كائن. ذلك أن النظر إلى الحوادث وكأنها حوادث منفصلة تماما عن الحاضر لن يؤدي إلى بلوغ الحقيقة التاريخية. هذا وتكمن أهمية المقاربة البيرونية التي تجعل من الحاضر ضرورة لفهم الماضي في أن" التقدم الحاصل الآن في كثير من العلوم المساعدة للبحث التاريخي من شأنه أن يجعل الحاضر من خلال علومه المتطورة نقطة انطلاق قوية لفهم فترات من الماضي البعيد بكيفية تفوق بصورة موضوعية ما استطاع أن يصل إليه بصددها سابقون من المؤرخين"[56]

4.الخاتمة:

ما يمكن استخلاصه من خلال هذه الدراسة التي عرضنا فيه أسس البحث العلمي في الكتابة التاريخية عند البيروني، أن هذا الأخير كان على دراية بطبيعة

المعرفة التاريخية، التي تبقى بعيدة عن معرفة الضروريات التي يتوصل إليها بالاستدلالات مما يجعل منها حقائق يقينية لا شك فيها. وأن إدراك الحقيقة التاريخية يتوقف على استعمال طرق عدة تعتمد: أولاً : على السماع والتقليد لأهل الكتب والملل وأصحاب الآراء والنحل. ولهذا يجب إخضاعها للنقد والتمحيص العقليين. وثانياً: على العيان أو ما يعرف بالتجربة المعيشية. وثالثاً: على قياس الغائب بالشاهد.

هذا الأمر يسمح لنا بالقول أن هذا العالم قد ساهم مساهمة فعالة في الارتقاء بالكتابة التاريخية فخطى بها خطوة إلى الأمام بحيث كان الواضع بحق لأصول طريقة النقد التاريخي قبل ابن خلدون بأكثر من ثلاثة قرون، إلا أن البيروني لم يعرضها بالكيفية التي عرضها بها ابن خلدون. ولعل هذا ما جعل الباحث التونسي فتحي التريكي يعتبر البيروني مؤسسا للفكر التاريخي العربي الإسلامي.

ولكن هذا لا ينسينا أن التاريخ قد تطور من حيث الموضوع والمنهج، فمن حيث الموضوع ازدادت مادته بالنظر للتراكمات الزمنية واتساع الرقعة الجغرافية وتبدل الملك وكثرة الحروب. أما من حيث المنهج : فقد كان لتطور تقنية جمع المعلومات وتطور البحوث المساعدة للبحث التاريخي وتنويع المصادر وكذا ترقية نقدها أثرا في الوصول إلى الحقيقة التاريخية التي لم يستطع البيروني بوسائله البسيطة في زمانه أن يبلغها. وبالتالي نحن لا ندّعي من خلال هذه الدراسة أن االبيروني ارتقى بالدراسات التاريخية إلى المستوى الذي بلغته اليوم.

5.المراجع:

[1] أبو الريحان البيروني، الأثار الباقية من القرون الخالية، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص16.

[2] المصدر نفسه، ص5.

[3] المصدر نفسه، ص4.

[4]المصدر نفسه، ص68.

[5] المصدر نفسه، ص5.

[6] أبو الريحان البيروني، القانون المسعودي، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص37.

[7] أبو الريحان البيروني، الأثار الباقية من القرون الخالية، مصدر سابق ، ص4.

[8] المصدر نفسه، ص4.

[9]المصدر نفسه، ص365.

[10] طبرية: مدينة فلسطينية قديمة جدا.

[11] المصدر نفسه، ص348.

[12] المصدر نفسه، ص348.

[13] المصدر نفسه، ص322.

[14]عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة العلامة ابن خلدون، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2007. ص50.

[15] المرجع نفسه ، ص50.

[16] المرجع نفسه، ص51.

[17] المرجع نفسه، ص51.

[18] محمد عبد الحميد الحمد، حياة البيروني، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، 2000، ص279.

[19] أبو الريحان البيروني، الأثار الباقية من القرون الخالية، مصدر سابق ، ص5.

[20]المصدر نفسه، ص6

[21] أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، ط2، منشورات عويدات،. بيروت –باريس ،2001 ،ص1033.

[22] المرجع نفسه، ص 1034. اندري لالاند،

[23]البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مصدر سابق، ص1.

[24]عبدالرحمان بدوي، موسوعة الفلسفة، ج2، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1984، ص75.

[25] البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مصدر سابق، ص1

[26] أحمد محمود الساداتي، تحقيق كتاب ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، ، مطبعة جامعة دمشق، 1984، دمشق، ص199.

[27] البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مصدر سابق، ص1 .

[28] جاء في لسان العرب،لإبن منظور، طبعة صادر1994، المجلد السادس، مادة (هرش): الهراش والإهتراش هو تقاتل الكلاب،...الهراش والمهارشة بالكلاب تحريش بعضها على بعض

[29]البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مصدر سابق، ص2.

[30] عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة العلامة ابن خلدون ، مرجع سابق،ص50

[31] البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مصدر سابق، ص4.

[32]من علماء الإسلام الذين تحدثوا عن ثقافة بلاد الهند من خلال ما وصله من أخبار إبن النديم في كتابه الفهرست.

[33] من كتاب المقالات الذين سبقوا البيروني أبو عيسى الوراق المتوفي عام 297هـ ، وأبو القاسم البلخي المتوفي عام319هـ.

[34]الإيرانشهري: أبو العباس محمد بن محمد الإيرانشهري، شخصية غير مشهورة ، ذكره البيروني في كتابيه تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة و الأثار الباقية من القرون الخالية

[35] البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مصدر سابق، ص2 .

[36] البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مصدر سابق، ص2.

[37] البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مصدر سابق، ص2.

[38] البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مصدر سابق، ص2.

[39]البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مصدر سابق، ص2.

[40]عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة العلامة ابن خلدون ، مرجع سابق، ص50.

[41]البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مصدر سابق، ص13-14.

[42]البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مصدر سابق، ص15 .

[43]البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مصدر سابق، ص14

[44]البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مصدر سابق، ص132.

[45] أشرف صالح محمد سيد ، الأثار الباقية عن البيروني، دار النشر الإلكتروني القاهرة، كتب عربية، ص30.

[46] المرجع نفسه، ص22.

[47]أبو الريحان البيروني، الأثار الباقية من القرون الخالية، مصدر سابق ، ص35.

[48] الموسوعة الفلسفية المختصرة، نقلها عن الإنجليزية فؤاد كامل وآخرون، راجعها زكي نجيب محمود، دار القلم، بيروت، ص15

[49]البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مصدر سابق، ص1.

[50]المصدر نفسه، ص1.

[51]المصدر نفسه ص132.

[52]ا المصدر نفسه، ص1.

[53]عبد الرحمان بن خلدون، مقدمة العلامة ابن خلدون ، مرجع سابق، ص23.

[54]المرجع نفسه، ص42.

[55]المرجع نفسه، ص42.

[56]محمد وقيدي، معقولية التاريخ ومعقولية التأريخ، الفكر العربي المعاصر، بيروت، مركز الإنماء القومي، ص32.